آراء النقاد العرب القدامى حول :
وحدة القصيدة و استقلالية الأبيات

إعـــداد

خـلـود جـرمـان خالد الدغيلبي

ماجستير كلية الاداب – جامعة الملك سعود

المـقــدمـــــة

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و على آله و صحبه أجمعن ، و بعد :

يحتل الشعر مكانة جليلة في تاريخ العرب القديم ؛ فقد كان الشعر ديوان العرب يحوي أمجادهم و مآثرهم و يسجل انتصاراتهم و مفاخرهم ، و كان الشاعر العربي القديم لسان قومه ؛ يدافع عنهم و يهجو أعداءهم و يتحدث بلسانهم مدحاً و فخراً و وصفاً و غير ذلك من أغراض الشعر المعروفة .

و في كتب الأدب إشارات دالة على مكانة الشعر و الشاعر في التصور العربي فقد كان الشعر يرفع أقواماً و يحط من قدر أقوام آخرين ، و في هذا السياق قيل بأن الشعر : أدنى مروءة السري ، و أسرى مروءة الدني .

في عصر النبوة وقف الشعر بجانب الدعوة الإسلامية ؛ فكان شعراء الرسول صلى الله عليه و سلم يصدون هجوم المشركين ، يفندون إدعاءاتهم و يذودون عن الإسلام و يوضحون ما جاء به الإسلام من هديٍ و رشاد ، على نحو ما جاء في شعر ابن رواحة و حسان بن ثابت و غيرهما من شعراء هذه المرحلة .

و من بعدها سار الشعر في ركب التاريخ يشارك في صنع الحضارة بما يحض عليه من مكارم الأخلاق و الفضائل و المثل الإنسانية العليا و دوّن الشعراء العرب الكبار أسماءهم في تاريخ الشعر الإنساني بما أبدعوا من تجارب إنسانية راقية على نحو ما شهدت بذلك أشعار أبي تمام و البحتري و أبي نواس و ابن الرومي و المتنبي و أبي العلاء المعري .

و قد سار النقد العربي جنباً إلى جنب مع الشعر يرصد حركته و يرقب اتجاهاته منذ القديم صعوداً و هبوطاً مداً و جزراً و من هنا نهض بناء النقد العربي القديم من مجرد إشارات انطباعية قيلت على ألسنة السابقين حتى تحولت إلى كتب منهجية معتبرة على أيدي نقاد كبار من أمثال : الآمدي و الجرجاني و من قبلهم الجاحظ و ابن سلام و غيرهم من النقاد العرب الأوائل .

و لقد اختلفت نظرة هؤلاء إلى الشعر و اختلفت آراؤهم حول ما هيه الشعر و طبيعته كما اختلفت نظراتهم إلى بناء الشعر و تكوين القصيدة .

و من ثم جاء موضوع هذا البحث و هو يعنى بالإشارة إلى نظرة النقاد العرب إلى القصيدة العربية من حيث وحدتها أو استقلالية الأبيات .

إن ثمة اتجاهين مختلفين في تاريخ النقد العربي ، هما :

الأول : القول بوحدة البيت و استقلاليته .

ثانياً : القول بوحدة القصيدة .

كثيرٌ من النقاد نظر إلى البيت باعتباره وحدة القصيدة . و آخرون نظروا إلى وحدة القصيدة باعتبارها كلاً لا ينفصل عن بعضه . و في هذا السياق يدور موضوع هذا البحث .

وفقاً لما سبق فإن البحث يتكون من تمهيد و ثلاث فصول و خاتمة . أما التمهيد فهو بمثابة توطئة موجزة للموضوع .

أما الفصل الأول : عرض البحث لوجهة نظر جانب من النقاد الذين رأوا أن وحدة البيت هي أهم ما في الشعر ؛ إذ هي الأصل . و مناقشة آراءهم و محاولة توضيح بعض النقاط حولها .

و في الفصل الثاني : عرض البحث لوجهة نظر جانب آخر من النقاد الذين اهتموا بمبدأ الوحدة في القصيدة . و مناقشة آراءهم حولها و توضيح نقاط فيها .

و الفصل الثالث : خصصته لمناقشة و مقارنة آراء النقاد في كلا الاتجاهين .

و في خاتمة البحث إشارة إلى أهم ما جاء به من نتائج و أفكار . ثم قائمة بالمراجع التي رجعت لها في بحثي هذا .

تمـهيـــد

تعريف الوحدة : يعرفها أحمد مطلوب في معجم النقد العربي القديم بقوله : " رجل أحد و وحد و وحيد و متوحد : أي منفرد ، و ألأنثى : وحدة توحّد : بقي وحدة ، و الوحدة في معنى التوحد ، و توحّد برأيه : تفرد به .

و الوحدة هي تلاؤم العمل الأدبي ، و التحام أجزائه ، و ترابط صوره . و قد انتبه إليها القدماء و إن لم يفصّلوا القول فيها " .([١])

وجد في تاريخ النقد العربي اتجاه قديم كان يخضع إلى العرف في النظر إلى البيت الشعري المفرد ، و هو ما يعني أن نظرتهم كانت تستند إلى وحدة البيت أكثر من استنادها إلى وحدة القصيدة .

لذلك وجدنا في النقد العربي القديم كثير من النتائج المترتبة على ذلك ، و منها سؤال النقاد عن أمدح بيت قالته العرب ، و أهجى بيت ، و أغزل بيت ، و أرثى بيت و هكذا . و هو ما يعني أنهم يغلبون وحدة البيت على وحدة القصيدة .

و كان من أسباب هذه النظرة العرف الاجتماعي الذي اهتم بالبيت الواحد دون القصيدة كاملة ، و كذلك سهولة حفظ البيت الواحد لاستخدامه في الاستشهاد و التمثل على أمور الحياة . فمن يريد الاستشهاد أو التمثل بالشعر على موقفٍ من المواقف مثلاً لن يورد القصيدة كاملة و إنما سيذكر البيت الذي يناسب الموقف المستشهد عليه .

و من هنا كان النظر إلى البيت المفرد السائر المشهور واحداً من المعايير التي كان بعض النقاد يحكمون بها على الشاعر . كي يحفظ بين الناس و يذهب بينهم مثل المثل السائر الذي يجري على كل لسان .

و في مقابل الموقف السابق كان طائفة من النقاد يهتمون بالقصائد الكاملة و يبنون عليها أحكامهم و هو ما يظهر مثلاً في كتب الطبقات و المفضليات و الأصمعيات ، حينما يتم الأخذ بجملة من القصائد و يطلق الحكم عليها و على قائلها ، حتى أن بعض النقاد ذكر أنه لو اجتمع لشاعر قصائد مثل قصيدته التي أجاد فيها لأصبح عال الشأن رفيع الذكر .

مما سبق يتضح لنا أن النظرتين أو الاتجاهين حول بناء القصيدة كانا موجودين معاً في تاريخ النقد العربي القديم في وقت واحد .

[١] ـ مطلوب . أحمد . معجم النقد العربي القديم (دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩م ، ط١) الجزء ٢ . ص : ٤٢٨ – ٤٢٩ .

بعض الدارسين يذهب إلى أن النظرتين السابقتين نتج عنهما أحكاماً و مواقف في النقد العربي ، و من ذلك أن القائلين بوحدة البيت ذهبوا إلى تفضيل المتنبي على ابن الرومي ؛ لأن المتنبي كان في قصائده يأتي بالأبيات المختارة المستقلة في نفسها .

فأصبح الحكم على شاعرية الشاعر متعلق باتجاه الناقد و تفضيله بين بناء القصيدة كوحدة واحدة مترابطة أو كل بيت مستقل لوحده ، له استقلاليته و وحدته لا يرتبط مع غيره .

كما بين بعض النقاد أن الاهتمام بوحدة البيت لا يضعف من مكانة القصيدة و النظر إلى ترابطها ككتلة واحدة ، و إنما هي مترابطة بفضل أبياتها التي يمكن أن يستقل كل بيت على حدة ، و من أصحاب هذا الرأي القاضي الجرجاني ، الذي يقول صاحب كتاب نظرية الشعر في النقد العربي القديم في معرض حديثه عنه : " اهتمام القدماء بوحدة البيت لا تضعف من تقديرهم لوحدة القصيدة و تماسكها ، فهم ينظرون إليها على أنها بناء فني متكامل ، يقوم على وحدات بنائية صغيرة هي الأبيات " .([1])

و في المقابل ذهب بعض الدارسين إلى أن كلام النقاد العرب القدماء عن الوحدة و تمام الأجزاء في بناء القصيدة ينبغي أن نفهم منه أنهم يقصدون ترابط أجزاء القصيدة بعضها مع بعض ، لا أن تكون القصيدة مترابطة في الموضوع و اللفظ كل بيت يوضح معنى الآخر .

إن جل اهتمام أصحاب الرأي في وحدة القصيدة أن تكون أغراضها مترابطة يحسن الشاعر من الخروج من غرض إلى غرض ، لا أن تكون كلها ذات غرض واحد . يقول في ذلك الدكتور يوسف بكار : " لا يعني أنهم كانوا يدورون حول وحدة القصيدة من أي نوع و لكنهم كانوا يهدفون إلى التماس الخروج الدقيق من مقدمة القصيدة إلى غرضها و ربطها به برباط دقيق " .([2])

وفقاً لما سبق فإن الأمر يدخل في نطاق الخلافات التي لم تقتصر على القدماء فقط ، و إنما امتدت إلى المحدثين أيضاً ، لذلك نبدأ الآن بمناقشة هذين الرأيين أو الاتجاهين كل رأي على حدة في فصلٍ مستقل ، فيما سيأتي . و بعد أن ننتهي من استعراض آراء النقاد حول كل اتجاه نعقد فصلاً نناقش به أقوالهم و أحكامهم بالمقارنة فيما بينهم .

****

[1] ـ عثمان ، عبد الفتاح . نظرية الشعر في النقد العربي القديم (مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ط ١) . ص : ٢١٧ .
[2] ـ بكار ، يوسف حسين . بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث (دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ط٢) . ص : ٢٩٣ .

الفصـــل الأول

وحـدة البيـــت و اسـتـقـــلاليـتـــه

لقد بدأت الحديث حول هذا الاتجاه لدى النقاد العرب القدامى لأن أغلب القصائد في الشعر العربي القديم قبل التدوين اتخذت منه مذهباً لها ، نجد استقلالية البيت واضحة في الشعر الجاهلي خاصة . مع وجود قصائد ذات ترابط في أجزائها توافق آراء أصحاب الاتجاه الثاني و هو وحدة القصيدة .

رغم أن أنصار الاتجاه المنادي بوحدة القصيدة و ترابطها هم أول من تحدث حول هذه القضية التي كثر حديث النقاد عنها في كتبهم . و ذلك عند الجاحظ الذي سنتطرق له في حينه .

من ذلك نتوصل إلى أن أغلب الشعر القديم كان ينسج على مذهب استقلالية البيت ، و أول من تحدث عن القضية هم أصحاب اتجاه وحدة القصيدة .

نعود إلى الحديث عن أصحاب الاتجاه القائل بوحدة البيت و استقلاليته . موضوع فصلنا هذا .

حيث ذهب كثير من النقاد العرب القدماء إلى اعتبار وحدة البيت هي الأصل في الشعر العربي القديم ، وذلك لأن البيت الواحد كان يفي بالحاجة التعبيرية للشاعر العربي القديم . فأصل الشعر عبارة عن أبيات قليلة يقدمها الشاعر . هذا بالجاهلية عند بدايات الشعر . فقد كانوا يسمون المعلقات بالسبع الطوال .

كما أن العرب تؤثر الإيجاز في الكلام ، و من البلاغة الإيجاز . فكلما عبر الرجل عن معناه بعدد كلمات أقل فهو قريب من البلاغة .

إن أول رواد مذهب وحدة البيت و استقلاليته ابن سلام الجمحي في كتابه " طبقات فحول الشعراء " عندما تحدث عن " بيت الشعر المقلد " و أنه من مميزات الشعر الجيد و سبب في اختيار ابن سلام له و إدخاله في طبقات الشعراء .

يعرف ابن سلام البيت المقلد بقوله:" البيت المستغني بنفسه ، المشهور الذي يضرب به المثل ".([1])

و قد اهتم ابن سلام باستخراج البيت المقلد في شعر كثير من الشعراء كجرير و الفرزدق لأهميته . بل إن ابن سلام جعله سبب من الأسباب التي نحكم على شاعرية الشاعر . فمن خلال حديث ابن سلام إن هذا البيت المستقل بذاته الذي يحمل لفظه معناه يجري مجرى المثل على ألسنة الناس ، و هذا ما يبحث عنه كل متذوق للشعر حسب رأي ابن سلام .

لعل ما دفع ابن سلام للتحيز إلى فكرة البيت الواحد هو قربه من العصر الجاهلي الذي يعد منشأ الشعر و بداياته ، فالشعر بدأ أبيات قليلة يقدمها الشاعر ثم تطور حتى أصبح قصيدة . فالأصل في الشعر العربي البيت الواحد .

[1]- الجمحي ، محمد بن سلام . طبقات فحول الشعراء . تحقيق : محمود شاكر (مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٢م ، ط١) . ص : ٣٠٥ .

بعد ابن سلام يظهر لنا محمد بن يحيى الصولي (٣٣٥ هـ) . يؤيد فكرة البيت الواحد ، حيث يقول : " خير الشعر ما قام بنفسه و كمل معناه في بيته ، و قامت أجزاء قسمته بأنفسها ، و استغنى ببعضها لو سكت عن بعض " .([١]) نلاحظ من كلامه موافقته لابن سلام في الرأي ، فهو يرى أن أفضل الشعر ما كمل معناه في بيته . و هذا رأي ابن سلام من قبله ، أي أن الصولي لم يأت بجديد . لذلك سنحاول فيما سيأتي أن نذكر كل من أضاف شيئاً جديداً في هذه القضية ، أما من يؤيد أقوال من سبقه و لم يأت بجديد سنتركه خشية الإطالة لأن من طرق هذا الموضوع كثر .

ظهر المرزوقي شارح ديوان الحماسة لأبي تمام في نهاية القرن الرابع (توفي عام ٤٣١هـ) ، مؤيداً لاتجاه وحدة البيت و استقلاله ، بل إن المرزوقي يحسب له جرأته بالتصريح في هذا المذهب ، و يعد خلافه عيباً ، حيث يقول : " و مبنى الشعر على أنه يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره ، إلا ما يكون مضمناً بأخيه ، و هو عيب فيه " .([٢])

نلاحظ في كلام المرزوقي تصريح لاتجاه وحدة البيت و تأييد له بصورة واضحة ، و هو أول تصريح حرفي لهذا الاتجاه وجدت ، لذا فهو يحسب للمرزوقي . و لعل ما دفعه بالجهر في هذا الاتجاه هو أن الاتجاه المقابل الذي يرى في وحدة القصيدة قد نشط في زمان المرزوقي و قبله بقليل ، لذلك أراد أن يكون كلامه رداً على أصحابه .

إن المرزوقي يذكر أن الشعر يبنى على وحدة البيت و استقلاله ، و ذلك بأن يقوم معنى البيت في داخله دون الحاجة إلى بيت آخر ، و هذا هو الشعر الحسن في نظر المرزوقي . أما إذا احتاج البيت إلى بيت آخر كي يوضح معناه بعطفٍ أو تابع فهو عيب في الشعر غير مستحسن ، و يسمى التضمين . كقول النابغة :

و هم وردوا الجفار على تميم و هم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات شهدن لهم بحسن الظن مني

فمعنى البيت الأول لا يظهر إلا مع البيت الثاني فهو متعلق به . و ذلك بخبر " إني " في البيت الثاني : " شهدت لهم " .

هذا حسب رأي المرزوقي و من تبعه ، فقد وضع تقيد الشاعر في وحدة البيت من أسباب جودة شعره ، و إذا لم يستقل البيت في معناه يعده عيب في شعره .

نرى هنا عند المرزوقي تطور في اتجاه قضية وحدة البيت و وحدة القصيدة ، فحين نجد ابن سلام يستحسن الشعر الذي بيته مستقل بذاته ، و لا يعيب من تعلق بيته بغيره . ظهر لنا المرزوقي بأن الشعر الجيد من استقل بيته بمعناه ، أما من تعلق معنى بيته بآخر فهو عيب من عيوب الشعر عند المرزوقي . و قد شارك المرزوقي كثير من النقاد في هذا الرأي .

---

[١] ـ المرزباني ، محمد بن عمران . الموشح . تحقيق : محب الدين الخطيب (القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٨٥هـ ، ط ٢) . ص :٢٣٧

[٢] ـ المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن . شرح ديوان الحماسة . تحقيق : أحمد أمين و عبد السلام هارون (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩١م ، ط ١) . الجزء : ١ . ص : ١٨ .

و لعل المرزوقي قد استفاد من رأي القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته ، حيث يقول : " لمن كثرت سوائر أمثاله و شوارد أبياته " .([١]) لأن القاضي الجرجاني سابق على المرزوقي .

و ممن أسهم في إثراء هذا الموضوع ـ وحدة البيت ـ الأصمعي . حيث جاء بشيء جديد و إضافة تحسب له حول استحسان استقلالية البيت و عدم تعلقه بغيره مثل سابقيه . إلا أنه يشترط شرطاً جديد في ذلك حتى تكمل جودة البيت . يقول : " و من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، و إن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه " .([٢])

فالأصمعي هنا يبين أن جودة الشعر لا تكتمل فقط باستقلالية البيت عن غيره و وحدته . بل يجب مع ذلك خلوه من التنافر . تنافر الألفاظ و تنافر الحروف . فإذا اجتمعت وحدة البيت مع سهولة الألفاظ حسن الشعر . و من أبيات الشعر التي عيبت لتنافر ألفاظها رغم وحدة البيت :

و قبر حربٍ بمكان قفر و ليس قرب قبر حربٍ قبرُ

فألفاظ البيت هنا قائمة بالمعنى مكتفية لا تحتاج إلى بيت آخر ليبين المعنى ، إلا أن تلك الألفاظ يغلب عليها التنافر ، يجد منشدها صعوبة في ذكرها . و مثلها قول امرئ القيس :

غَدَاتِـرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَـى الـعُـلاتَـضِـلُّ الـعِـقَـاصُ فِـي مُثَـنَّى وَمُرْسَلِ

فبرغم من وحدة البيت إلا أننا نجد النقاد يطلقون عليه حكم المعيب في الشعر . حتى و إن كانوا هؤلاء النقاد ممن يرى في وحدة البيت و استقلاليته .

و هي إضافة للنقد العربي حول القضية التي أبحث فيها ، جاء بها الأصمعي .

نصل إلى القرن الخامس الهجري عند ابن رشيق الذي تناول هذه القضية بصورة أوضح ، و بحث فيها . فأورد أقوال من سبقه ممن يؤيد وحدة البيت و استقلاليته ، و عارضها بأقوال الاتجاه الآخر الذين يرون وحدة القصيدة و ترابطها . و لقد أفدت منه كثيراً حيث وجدت نصوصاً أوردها لنقاد سابقين كالحاتمي و المرزوقي . فذكر كلام كل طرف في القضية و قارن بينهما ، بعد ذلك أصدر حكمه بتأييد من يرى بوحدة البيت و استقلاله .

إن طرح أقوال و آراء كلا الطرفين في هذه القضية النقدية و مناقشتها يحسب لابن رشيق ، فهو أول من قام بذلك . إذ أن من سبقه اكتفى بذكر رأيه فقط مبيناً السبب ، و لم يذكر رأي من يخالفه في الرأي و وجهة نظره .

---

[١] ـ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز . الوساطة بين المتنبي و خصومه . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي (القاهرة ، دار إحياء الكتب ، ١٩٦٦م) . ص : ٣٣ .

[٢] ـ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .البيان و التبيين. تحقيق : عبد السلام هارون (القاهرة ، مكتب الخانجي، ١٩٩٨م،ط ٧) الجزء : ١ ص : ٦٥.

يقول ابن رشيق : " و من الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض . و أنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ، و لا إلى ما بعده ، و ما سوى ذلك فهو عندي تقصير " .([1])

هنا اعتراف من ابن رشيق بالطرف الآخر بالقضية و هو المعارض لوحدة البيت المؤيد لوحدة القصيدة ، و مع ذلك فابن رشيق يعارضهم في رأيهم و يؤيد استقلالية الأبيات رغم اعترافه بهم و إيراده لأقوالهم . فابن رشيق هنا يطرح لنا أسلوب المقارنة في الدراسة النقدية بين الآراء ثم إصدار الحكم .

في القرن الثامن ظهر ابن خلدون (٧٣٢هـ) بمقدمته الشهيرة التي تناول فيها كل الجوانب الإنسانية من تاريخ و سيرة و علم اجتماع و كذلك أدب . و خص الشعر بحديث طويل حيث عرف الشعر تعريفاً يتناوله النقاد كأحد أبرز التعريفات في تراثنا العربي القديم . يقول ابن خلدون : " الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به " .([2])

ما يهمنا من تعريف ابن خلدون للشعر ، قوله " مستقل كل جزء منها في غرضه و مقصده عما قبله و بعده " . يقصد بقوله " كل جزء " أي كل بيت منه . فيجب في الشعر حسب نظر ابن خلدون أن يكون كل بيت مستقل عما قبله في غرضه و مقصده غير مرتبط لا فيما قبله أو بعده .

ابن خلدون هنا يأخذ برأي من يرى في وحدة البيت و استقلاليته ، عند من سبق و ذكرناهم كابن سلام و المرزوقي و الأصمعي و ابن رشيق . بل إن وحدة البيت عند ابن خلدون عنصر رئيس في تعريف الشعر . إذ يجب أن يكون الشعر مستقل الأبيات و إلا لم يعد شعراً حسب تعريف ابن خلدون . و هو تحيز للرأي قوي لم نجده عند سابقيه .

هذا ما كان من شأن الاتجاه القائل بوحدة البيت في الشعر العربي و من يؤيده ، بالإضافة إلى تتبع ظهور هذا الرأي في النقد العربي القديم و تطوره حتى وصلنا إلى القرن الثامن الهجري عند ابن خلدون . فأولى إشارات هذا الاتجاه كانت عند ابن سلام ، و المرزوقي أول من جهر به ، و زاد الأصمعي شرط سهولة الألفاظ و البعد عن تنافرها للحكم على جودة الشعر حتى و إن استقل البيت ، بالإضافة إلى دراسة ابن رشيق القيرواني ، الذي طبق مبدأ المقارنة بين الرأيين في هذه القضية بعد استعراض مقولات أصحابها ، و من ثم نطق بالحكم الذي يميل له في الحكم على أفضل الشعر . و أخيراً توقفنا عند ابن خلدون و تعريف الشعر عنده فقد وضع استقلالية البيت و عدم ارتباطه بغيره عنصر من عناصر تعريف الشعر .

في الفصل القادم سنتحدث عن الطرف الآخر في القضية و هو الرأي القائل بوحدة القصيدة و ترابطها ، مع ذكر ممن يؤيد هذا الرأي و إضافاتهم .

---

[1] ـ القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق . العمدة في صناعة الشعر و نقده. تحقيق: محي الدين عبد الحميد(القاهرة،المكتبة التجارية ، ١٩٥٥م).الجزء:١. ص : ٢٥٥ .

[2] ـ ابن خلدون . عبد الرحمن بن محمد بن الحسن . مقدمة ابن خلدون . تحقيق : علي عبد الواحد وافي (القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٢م ، ط ١) . الجزء : ٤ . ص : ١٢٩٥ .

الفصـــل الثاني

وحدة القـصـيـدة و تـرابـطـــهـــا

قبل البدء في الحديث حول هذا الاتجاه يجب أولاً أن نبين أن أصحاب هذا الرأي يقصدون بقولهم وحدة القصيدة : ترابط القصيدة في أجزائها و حسن التخلص من غرض إلى غرض داخل القصيدة ، و ليس أن تكون القصيدة كلها بنية واحدة في غرض واحد . فالنقاد العرب القدماء لم يدركوا بعد معنى الوحدة العضوية للقصيدة . أي أن تكون كتلة واحدة لموضوعٍ واحد مترابطة متماسكة .

إن أول من أشار إلى وحدة البيت هو ابن سلام ، المتوفى (٢٣٢هـ) . و الجاحظ أول من تحدث عن وحدة القصيدة ، توفي عام (٢٥٥هـ) نلاحظ أنهما كانا في عصر واحد .

و كانت بداية الحديث عن بناء القصيدة ، و أيهما أفضل وحدة القصيدة أو وحدة البيت عند الجاحظ (٢٥٥هـ) . الذي كان من مناصري رأي وحدة القصيدة ، يقول : " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان " .([1])

الجاحظ بمقولته هذه إن صحت يصنف الشعر المترابط المفرغ و كأنه بنية واحدة بأجود الشعر ، كما ذكر الجاحظ أنه يجري على اللسان بسهولة ، و هو يقصد هنا سهولة الألفاظ و البعد عن تنافرها . فإذا توفرت هذه الأشياء بالشعر صار أجوده حسب رأي الجاحظ .

إن مقولة الجاحظ أولى المقولات المبكرة حول تأييد ترابط القصيدة ، و إن كان بها شك .

فهو لم يقل القصيدة بل قال الشعر ، كما أن حديثه كان منصباً حول تنافر الألفاظ كعيب و البحث عن سهولتها للتخفيف على متلقي الشعر . و لنا عودة حول هذه المقولة في الفصل الثالث حيث سنفصلها تفصيلا .

أما من ثبت فعلاً أنه قد تحدث عن بناء القصيدة و ضرورة ترابطها و حسن الخروج من غرض إلى آخر داخل القصيدة ، فهو ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابه " الشعر و الشعراء " . يقول : " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار و الدمن و الآثار ، فبكى و شكى و خاطب الربع و استوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول و الظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، و انتجاعهم الكلأ ، و تتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد و ألم الفراق و فرط الصبابة و الشوق . ..... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه و الاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، و شكا النصب و السهر ، و سرى الليل و حر الهجير ، و أنضاء الراحلة و البعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء و ذمامة

[1] ـ البيان و التبيين . الجزء : ١ . ص : ٦٧ .

التأميل ، و قرر عنده ما ناله من المكارة في المسير بدأ المديح ، فبعثه على المكافأة ، و هزه للسماح ، و فضله على الأشباه ، و صغر في قدره الجزيل " .([١])

يجب في البداية أن نبين أن هذا الكلام ليس كلام ابن قتيبة و إنما سمعه من بعض أهل الأدب . من هم أهل الأدب هؤلاء ؟ لا ندري . لكن ابن قتيبة يوافقهم الرأي في بناء القصيدة من ذكر الطلل و الأصحاب و الحبيب و المواقع ثم الناقة و المسير بها و بعدها التشكي من طول المسير و التعب منه حتى إذا بدأ المديح كان ذا أثرٍ كبير . يبين ابن قتيبة أن الشاعر عليه أن يتقيد ببناء القصيدة و ربط عناصرها . فلا يخرج من غرضٍ إلى آخر إلا بعد أن يستوفيه كما يجب عليه أن لا يطغ غرض على آخر ، بل كل غرض يستوفي حقه . ثم يجب على الشاعر أن يحسن التخلص من غرض إلى آخر . فالقصيدة عند ابن قتيبة وحدة بناء متكاملة يجب أن يحسنها الشاعر و إلا عد شعره قليل الجودة .

في القرن الرابع ظهر من عاد و زاد في موضوع وحدة القصيدة ، و أعطى هذا الاتجاه حقه من الاهتمام . حيث ظهر ابن طباطبا (٣٢٢هـ) صاحب كتاب " عيار الشعر " . و هو أشهر من تناول وحدة القصيدة مؤيداً ، فتكلم عن ضرورة استكمال الشاعر أدواته بعد تنقيح موهبته ، و من بعدها تكلم عن جيشان الفكر للشاعر فإذا به ينتج الشعر الذي شبهه بأنه يكون كتلة واحدة متماسكة مثل السبيكة . يقول : " سبيكة مفرغة ،من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن " .([٢])

ابن طباطبا كان أشهر من تحدث عن وحدة القصيدة من النقاد القدماء ، و كان ينادي بتقيد الشاعر في بناء قصيدته بالوحدة فيها و كأنها قطعة واحدة لا تداخل فيها و لا شوائب . يقول ابن طباطبا : " و أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل و الخطب " .([٣])

هنا يبين ابن طباطبا أن أحسن الشعر ما ترابطت أجزاؤه منتظم القول لا يتقدم بيت على آخر ، و إذا تقدم فإنه يحدث الخلل . فابن طباطبا هنا يضع ترابط الأبيات في القصيدة شرطاً لجودة الشعر ،بل إن تقدم بيت على آخر يحدث الخلل في القصيدة ككل من شدة ترابطها و سبك القصيدة كبنية واحدة . يقول : " بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً و حسناً و فصاحة و جزالة ألفاظ و دقة معانٍ و صواب تأليف ".([٤])

هنا نجد وعي ابن طباطبا بوحدة القصيدة الكامل ، و إن كان هناك من يتهم الشعر العربي بالبعد عن وحدة القصيدة و أنه قائم على فردية الأبيات كبروكلمان . في كتابه " تاريخ الأدب العربي " . فكلام ابن طباطبا رد على كل من قال هذا الكلام . فالعرب مثلما عرفت استقلالية الأبيات ، كذلك عرفت وحدة القصيدة و بناءها كتلة واحدة .

---

[١]- ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر و الشعراء . تحقيق : أحمد محمد شاكر (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١م ، ط ٢) . الجزء : ١ . ص : ٧٤ – ٧٥ .

[٢]- العلوي . محمد بن طباطبا . عيار الشعر . تحقيق : عبد العزيز المانع (دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٥م ، ط ١) ص : ٧ من نص الكتاب .

[٣]- المرجع السابق . ص : ٢١٣ من نص الكتاب .

[٤]- المرجع السابق . ص : ٢١٣ من نص الكتاب .

هذا ابن طباطبا يدعو الشعراء إلى بناء قصائدهم مترابطة لفظاً و معنى بحيث تظهر كأنها كلمة واحدة أي تغير في أجزائها يفسدها . و هذا يعد عنده من جودة الشعر و سبباً من الأسباب التي ترتقي بشعر الشاعر و تجعله في مصاف الكبار .

يعد ابن طباطبا أول من صرح و أيد هذا الاتجاه ـ وحدة القصيدة ـ بشكلٍ واضح و جلي . فمن سبقه كالجاحظ عمم حكمه على الشعر بأن يكون مترابط الأجزاء و لم يذكر القصيدة . و ابن قتيبة أخذ أقوال من سبقه من أهل الأدب حول المقدمة الطللية و ركّز على ترابطها و حسن التخلص بين أجزائها ، و إن كانت المقدمة الطللية كثيرة الأغراض و الموضوعات ، فهي ليست ذات موضوع واحد متماسك ، إذ يطرق بها الشاعر موضوعات شتى .

أما ابن طباطبا فقد فصل و صرح بالتحيز لمذهب القصيدة الواحدة المترابطة شكلاً و مضموناً ، في أجزائها و موضوعها و ألفاظها . لا يخرج واحد عن آخر ، و كل خروج من شأنه أن يفسد القصيدة و يخل بها . فهو لا ير استقلالية الأبيات من جودة الشعر ، بل عيباً .

إن رأي ابن طباطبا لم يكن خاص فيه ، بل وجد في الأدب العربي من يوافقه الرأي و هم كثر . منهم الحاتمي (٣٨٨هـ) صاحب كتاب " حلية المحاضرة " . له حديث حول وحدة القصيدة و ضرورة ترابطها كجسد الإنسان . يقول : " فإن القصيدة مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض . فمتى انفصل واحد عن الآخر أو باينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخوّن محاسنه ، و تُعفّي معالم جماله ، و قد وجدت حذّاق الشعراء و أرباب الصناعة من المحدثين محترسين من مثل هذا الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، و يقف بهم ، على محجة الإحسان ".([١])

من حديث الحاتمي السابق يتضح لنا إتباعه لرأي ابن طباطبا في وحدة القصيدة . مع اختلاف التشبيه . فابن طباطبا شبه القصيدة في تماسكها بالسبيكة المفرّغة إفراغاً ، و الحاتمي شبهها بجسد الإنسان المترابط من أجزاء . كل جزء لا يستغن عن الآخر ، و لا يستطيع أن يحل محل الآخر . فإذا فقد مكانه أختل الجسد ككل . كذلك القصيدة عند الحاتمي هي جسد مكون من أجزاء لا يتقدم جزء على آخر و لا يؤدي جزء وظيفة الآخر . كل جزء له وظيفته في القصيدة ،مم يضمن لنا ترابطها و ظهورها بشكل جيد .

إن رأي الحاتمي الموافق لرأي كل من نادى بوحدة القصيدة لا يظهر في مؤلفاته إلا في هذا النص اليتيم . و إن كان هذا الرأي لم يضف الجديد على هذا المذهب سوى جودة التشبيه و ربطه بجسد الإنسان ، الذي وجد قبولاً عند الكثيرين ، لذا وجب الانتباه لهذه النقطة .

لماذا لم نجد حديثاً آخر للحاتمي حول وحدة القصيدة ؟! . لماذا لم يذكر الحاتمي من سبقه بالحديث حول هذا الموضوع كابن طباطبا ؟ . هل تغير رأي الحاتمي حول هذه القضية ، أم أن للحاتمي كتابات حولها و لم تصلنا ؟. أم أن الحاتمي لم يقصد الحديث حول وحدة القضية ، و إنما أراد شيئاً آخر ؟ .

سنناقش هذا الموضوع في الفصل القادم ، لذا نتركه في حينه .

---

[١] ـ العمدة في صناعة الشعر و نقده . الجزء : ٢ . ص : ١١٧ .

في القرن السابع يظهر لنا حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) مؤيداً لوحدة القصيدة و لكن بشكل متطور أكثر ، قد تكون لثقافته الواسعة دور في ذلك . فقد كان مطلع على مؤلفات فلاسفة اليونان . يقول : " اعلم أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف ، و الفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف ، و القصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ . فكما أن الحروف إذا حسنت ، حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبت على ما يجب وضع بعضها من بعض على ما ينبغي " .([1])

هنا يأتي القرطاجني بشيء لم يسبقه أحد عليه و هو التفصيل في بناء القصيدة . فمن كان قبله ينظر إلى بناء القصيدة ككل أو بناء البيت فقط . أما حازم القرطاجني فقد فصل في موضوع بناء القصيدة تفصيلاً دقيقاً . حيث ذكر لنا أن بناء القصيدة يتكون من بيت ثم فصل ثم قصيدة . و هو ما يقابل : الحرف و الكلم و العبارة في الكلام المنثور .

فالشاعر يبني قصيدته مبتدأً من بيت الشعر ثم يشكل من أبيات الشعر التي نظمها موضوع ، و بعد ذلك يبني من الموضوعات التي أنشأها قصيدة . هذه اللبنات يجب أن تكون مترابطة متماسكة لا تفرق بين أجزائها و إلا فسدت القصيدة . مثلما يبنى الكلام أو العبارات من كلمات ، و هذه الكلمات أصلها مبني من حروف . فلا معنى للعبارات دون أن تترابط مع كلماتها . كذلك القصيدة يجب أن تترابط مع موضوعاتها التي تشكلها ، و هذه الموضوعات تتشكل من أبيات الشعر .

فالقرطاجني يرى بوحدة القصيدة مع إضافة جديدة في طريقة تركيب القصيدة .

مما سبق يتضح لنا أن بداية الآراء حول وحدة القصيدة ظهرت إشاراتها عند الجاحظ باستحسان الشعر المترابط الأجزاء ، ثم جاء ابن طباطبا و صرح ببناء القصيدة على وحدة واحدة كأنها السبيكة المفرغة . أما ابن قتيبة فقد كان جل حرصه على حسن ترابط الأبيات و حسن التخلص من موضوع إلى آخر . ثم نعود إلى المناداة بوحدة القصيدة كرأي ابن طباطبا و ذلك عند الحاتمي الذي وصف القصيدة بجسد الإنسان المترابط . و أخيراً نصل إلى القرطاجني الذي لم يذهب بعيداً عن رأي سابقيه مع إضافته إلى بناء جديد للقصيدة مشبهه ببناء العبارات في الكلام المنثور .

****

الفصـــل الثالث

منـاقشــة آراء نـقــاد الرأيــيــن و أقـوالـهـــم

بعد أن استعرضنا آراء النقاد و أقوالهم حول قضية وحدة القصيدة و استقلالية الأبيات في بناء القصيدة ، نجد أن حديثهم بدأ منذ القرن الثالث الهجري عند ابن سلام و الجاحظ حتى وصلنا إلى عصر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري ، و الصحيح أن الحديث و البحث حول وحدة

[1] ـ القرطاجني ، حازم . منهاج البلغاء و سراج الأدباء . تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة (تونس ، الدار العربية للكتاب ، ٢٠٠٨م) . ٢٨٧ – ٢٩١ .

القصيدة و استقلالية الأبيات في النقد العربي ما زال قائماً حتى يومنا هذا لم يتوقف ، منقسمين بين الاتجاهين . لذا دعونا الآن نناقش هذه القضية من خلال أقوال النقاد القدماء التي طرحت سابقاً .

بالنظر إلى ميراثنا الشعري قبل عصر التدوين و حتى بعده ،نجد من أشعار العرب ما اتخذ من وحدة القصيدة و ترابطها منهجاً له. كما أننا نجد أيضاً من اتخذ من وحدة البيت و استقلاليته منهجاً للقصيدة ككل ، و هو الغالب .

و لعل سبب أغلبية الأشعار الموجودة عند العرب القائمة على وحدة البيت هو ميلهم للإيجاز . فالإيجاز يعد نوع من أنواع البلاغة عند العرب . أي كيف تعبر عن المعنى المراد بأقل عدد من الكلمات . لذا مال الشعراء لاقتصار المعنى على بيت واحد إظهاراً لبراعتهم بالنظم .

و كذلك لأن العرب قديماً كانت تحب الشعر و تهواه و تتغنى به و تستشهد به ، لذلك كانوا يحرصون على ما سهل لفظه كي يسهل حفظه و كمل معناه . فلا نجد من يستشهد بقصيدة ، و لكننا نجد العرب تستشهد ببيت . كقولهم : أغزل بيتٍ قالته العرب بيت جرير :

إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

كما قالوا إن أمدح بيتٍ قالته العرب ، بيت زهير :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

و قالوا إن أفخر بيتٍ قالته العرب ، بيت عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبيا تخر له الجبابر ساجدينا

و على هذه الشاكلة انتشرت أبيات بين العرب فسارت مثل المثل السائر ــ كما قال القاضي الجرجاني ــ يستشهد به الناس في مواقفهم التي تناسبه . و لو سألتهم عن القصيدة التي تحوي هذا البيت الذي يستشهدوا به لم يكادوا يعرفونها . و لك مثال في نفسك الآن ، هل تعرف القصائد التي وردت بها الأبيات المشهورة السابقة ؟ .

كما أن هناك جماعة آخرين ، اهتموا بالبيت المفرد من القصيدة دون القصيدة كلها . و هم النحاة . فقد كان النحاة يستشهدون على قواعد اللغة العربية ببيت شعر ، دون الرجوع إلى القصيدة التي وجد بها هذا البيت . من ذلك استشهادهم بقول أبي النجم العجلي :

إن أباها و أبا أباها قد بلغا من المجد غايتاها

فالنحاة يستشهدون بكلمة " أباها " الثانية التي وقعت مضاف إليه و حقها الجر بالياء و هو المشهور ، إلا أنها هنا وردت منصوبة بالألف بخلاف القاعدة .

إن هذه الأسباب التي ذكرناها : (سهولة الألفاظ و الحفظ و الإنشاد و الاستشهاد لموقف أو قاعدة نحوية) هي ما جعل العامة من الناس تفضل وحدة البيت و استقلاليته ، و من ثم تبعهم جل النقاد . حيث يرون إن ما وصل لذائقة الناس من الشعر فهو أجوده .

أما من يرى بوحدة القصيدة و ترابطها ، فقد يكون سبب ذلك اختلاط العرب بأمم أخرى بعد انتشار الإسلام ، و ثقافة هذه الأمم تتميز بشعرها المترابط في أجزائه ، مثل الشعر القصصي و الملحمي . فاختلاط العرب بأمم أخرى و ترجمة كتب اليونان إلى العربية فتح مجالات ثقافية كثيرة أمام مثقفي العرب . و في ذلك يقول ابن الأثير : " وجدت العجم يفضلون العرب في هذه الناحية المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ،و هو شرح قصص و أحوال يكون مع ذلك غاية في الفصاحة و البلاغة في لغة القوم".([١])

ابن الأثير هنا و مثله كثير من النقاد يرى تفوق شاعر العجم على شاعر العرب بأنه استطاع أن ينظم كتاباً كاملاً شعراً ، متصل بعضه ببعض بأسلوب قصصي . و لعل هذا الحكم يعود إلى رأي صاحبه في التفضيل ، لأننا نجد من شعراء العرب من نظم شعره قصة مترابطة من أولها إلى آخرها .

إن بدايات أقوال النقاد العرب حول وحدة القصيدة و وحدة البيت المدونة في كتبهم بدأت في القرن الثالث الهجري . عند الجاحظ و ابن سلام .

فابن سلام كان يبحث عن الشاعر الذي تتناقل شعره الركبان ، و يسير شعره كالأمثال يجري على ألسنة الناس . و سماه بالبيت المقلد .

أما الجاحظ فقد استحسن من الشعر ما كان مترابط الأجزاء حسن المخارج . و بالنظر إلى نص الجاحظ الذي أوردناه سابقاً،يقول: " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان " .

نلاحظ على هذا النص ما يلي :

- النص أورده الجاحظ على لسان أبي عمرو بن العلا ، ليس كلام الجاحظ .
- الحديث عن الشعر ، و ليس عن القصيدة . فلم يذكر القصيدة أبداً .
- الاستحسان في الترابط : ربط أغراض القصيدة فيما بينها و عدم تفرقتها .

هذا ما يخص حديث الجاحظ عن وحدة القصيدة ، و كذلك يشترك معه حديث ابن قتيبة الذي يقول : " سمعت أهل الأدب ... " فهو ليس كلامه إنما كلام من سمع من أهل الأدب الذين قبله لا نعرف عنهم شيئاً . و ابن طباطبا و مثلهم الحاتمي . فكلهم كانوا يقصدون بقولهم حسن التخلص بين أغراض القصيدة الواحدة ، كيف يخرج الشاعر من موضعٍ إلى آخر لا أن تكون القصيدة كلها ذات موضوع واحد مترابط مع بعضه. هذا ما كان يرمي إليه نقادنا القدماء .

يظهر ذلك جلياً من حديث ابن قتيبة حول المقدمة الطللية و حسن التنقل بين مواضيعها ، و كذلك كلام الحاتمي الذي أوردناه أيضاً ، إذ لو نرجع إلى بدايات حديثه المذكور لوجدنا أنه يذكر لنا غرض الغزل و غرض المدح في القصيدة و حسن الانتقال من غرض إلى آخر ، دون قطع أو عيب أو لفظ كقولهم : " دع ذا " ثم ينتقل للغرض الآخر .

[١]- عزام ، محمد . مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي (سوريا ، منشورات وزارة الثقافة ، د . ت) . ص : ٥٤٧ .

و لنا تعليق على قول ابن خلدون عندما عرّف الشعر بقوله : " " الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به " .

نلاحظ هنا أن ابن خلدون يضع تعريفاً للشعر . و يذكر فيه " مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده" . أي أنه يجب أن يكون كل بيت في القصيدة مستقل عما قبله و ما بعده بالغرض و المقصد . حسب رأي ابن خلدون .

و لكن ما حال أبيات الشعر التي في تراثنا العربي المتصلة فيما قبلها أو ما بعدها ؟!

هل لا نعدها شعراً حسب رأي ابن خلدون ؟!

مثال : قصيدة الحطيئة ، التي يقول فيها :

وَطاوي ثَلاثٍ عاصِبِ البَطنِ مُرمِلٍ ببيداءَ لَم يَعرِف بِها ساكِنٌ رَسما
أَخي جَفوَةٍ فيهِ مِنَ الإِنسِ وَحشَةٌ يَرى البُؤسَ فيها مِن شَراسَتِهِ نُعمى
وَأَفرَدَ في شِعبٍ عَجُوزاً إِزاءها ثَلاثَةُ أَشباحٍ تَخالُهُمُ بَهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَشَمَّرَ وَاِهتَمّا
فقال هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما
وَقالَ اِبنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ أياأَبَتِ اِذبَحني وَيَسِّر لَهُ طُعما
وَلا تَعتَذِر بِالعُدمِ عَلَّ الَّذي طَرا يَظُنُّ لَنا مالاً فَيوسِعُنا ذَمّا

هل هذه القصيدة المترابطة الأبيات ، التي لا يظهر معنى البيت إلا باتصاله فيما قبله أو بعده من الشعر ؟

حسب تعريف ابن خلدون ، لا .

و لكن الصواب أنها تعد شعراً . لأن الشعر العربي مثلما وجد فيه استقلال البيت و تفرده و هو الغالب ، أيضاً نجد نماذج من الشعر العربي ذات ترابط بين أبيات القصيدة الواحدة ، فلا يتم معنى البيت إلا بمساعدة ما قبله أو ما بعده .

بعيداً عن رأي ابن خلدون المتشدد لوحدة البيت ، فإن تعريفه للشعر لم يشتهر بين النقاد العرب إلا لأنه متضمن على الصور الشعرية كشرط يجب توفره في الشعر . و قد أغفل كثير ممن عرّف الشعر هذا الشرط . و هي تحسب لابن خلدون أسبقية أولى لذكره . و لكن علينا أن لا نخرج من الشعر ما ليست أبياته منفصلة مستقلة .

الشعر العربي وجد فيه قصائد مرتبطة الأبيات فيما بينها ، لا يظهر معنى البيت إلا بصاحبه ، و كذلك يوجد قصائد مستقلة أبياتها عن غيرها . و من النوعين ما كان حسن و منهما ما كان سيء . لذلك يجب أن لا نعد ترابط الأبيات عيباً في القصيدة أو سبباً للحكم في جودتها. فالنقاد أكثروا الحديث منذ أمد بعيد حول هذه القضية بين مؤيدٍ و معارض ، و أضاعوا الكثير من الوقت و الجهد . و الصواب أن يترك هذا الجدال حول وحدة البيت أو وحدة القصيدة . فللشاعر أن يختار

ما أراد من النموذجين فكلاهما متاح في الشعر العربي ، المهم أن يجيد في نظمه على أي نموذج يختار ، كما أوضح ذلك قدامة بن جعفر . إلا أن قدامة طرح المعاني للشاعر فاسدها و صالحها فللشاعر الأخذ منها ما يريد المهم الإجادة . أما نحن هنا فنطرح للشاعر الأخذ بوحدة القصيدة أو وحدة البيت ، فله ما يريد منهما المهم الإجادة .

****

الخـــاتـمـــــة

في نهاية بحثي هذا استطيع أن أقول بأن الشعر العربي زاخر بالنماذج المتعددة ، ليس كله على نموذج واحد . فمن يؤيد وحدة القصيدة سيجد شعراء طرقوا هذا التيار ، و من يريد وحدة البيت فهو الغالب على الشعر العربي . لذلك أحب أن أبين بعض النقاط التي توصلت إليها،مثل:

- بدأ حديث النقاد العرب القدماء في كتبهم حول وحدة القصيدة و وحدة البيت منذ القرن الثالث الهجري . بدءً من الجاحظ و ابن سلام . و لا زال الحديث حول هذه القضية حتى الآن .
- إن من يرى بوحدة البيت هم : العامة من الناس و بعض النقاد و النحاة و هو الغالب على الشعر العربي ، أما من يرى بوحدة القصيدة ففريق من النقاد فقط .
- بعض النقاد وضع وحدة البيت شرطاً للشعر المستحسن و سبباً للحكم على جودة الشعر ، و كذلك فعل مؤيدو تيار وحدة القصيدة .
- تأثر بعض النقاد العرب بالثقافات الأخرى و بشعرائهم ، مم يخالف الذوق العربي . حيث نلاحظ أن الناقد العربي القديم المطّلع على مؤلفات الأمم الأخرى يؤيد وحدة القصيدة ، أما الناقد صاحب الثقافة العربية الصرفة فهو مؤيد لوحدة البيت . و هو ليس حكماً مطلقاً و لكن الأغلب هكذا .
- الفهم الخاطئ لحديث كثير من النقاد العرب حول وحدة القصيدة ، فهم كانوا يقصدون من حديثهم حسن ترابط القصيدة بأغراضها و جودة تدرج هذه الأغراض في القصيدة الواحدة بحيث لا يحس المتلقي بالانتقال من غرض إلى آخر . أو يستهجن أسلوب التحول هذا .

ختاماً : أرجو من الله أن أكون قد وفقت في طرحي هذا بما فيه الخير و الفائدة للجميع .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الخلق و المرسلين .

المـــــراجـــــــع

١ ـ ابن خلدون . عبد الرحمن بن محمد بن الحسن . مقدمة ابن خلدون . تحقيق : علي عبد الواحد وافي (القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٢م ، ط ١) .

٢ ـ ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر و الشعراء . تحقيق : أحمد محمد شاكر (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١م ، ط ٢).

٣ ـ بكار ، يوسف حسين . بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث (دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ط٢) .

٤ ـ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .البيان و التبيين. تحقيق : عبد السلام هارون (القاهرة ، مكتب الخانجي، ١٩٩٨م،ط ٧) .

٥ ـ الجرجاني ، علي بن عبد العزيز . الوساطة بين المتنبي و خصومه . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي (القاهرة ، دار إحياء الكتب ، ١٩٦٦م) .

٦ ـ الجمحي ، محمد بن سلام . طبقات فحول الشعراء . تحقيق : محمود شاكر (مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٢م ، ط١) .

٧ ـ عثمان ، عبد الفتاح . نظرية الشعر في النقد العربي القديم (مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ط ١)

٨ ـ عزام ، محمد . مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي (سوريا ، منشورات وزارة الثقافة ، د .ت) .

٩ ـ العلوي . محمد بن طباطبا . عيار الشعر . تحقيق : عبد العزيز المانع (دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٥م ، ط ١) .

١٠ ـ القرطاجني ، حازم . منهاج البلغاء و سراج الأدباء . تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة (تونس ، الدار العربية للكتاب ، ٢٠٠٨م).

١١ ـ القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق . العمدة في صناعة الشعر و نقده . تحقيق : محي الدين عبد الحميد (القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٥م) .

١٢ـ المرزباني ، محمد بن عمران . الموشح . تحقيق : محب الدين الخطيب (القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٨٥هـ ، ط ٢) .

١٣ ـ المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن . شرح ديوان الحماسة . تحقيق : أحمد أمين و عبد السلام هارون (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩١م ، ط ١) .

١٤ ـ مطلوب . أحمد . معجم النقد العربي القديم (دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩م ، ط١) .